تحليل النص الأدبي ومبدأ ربط النحو بالبلاغة

بقلم : عمار ساسي
- جامعة تيزي وزو

المقدمـة :

تعددت التعاريف حول النص الأدبي أو العمل الأدبي بتعدد النظرات والآراء والمذاهب والعقائد ، فمن قائل أن النص الأدبي هو قطعة شعرية أو نثرية تعبر عن تجربة شعورية شخصية من موضوع من الموضوعات أو في جانب منه بأسلوب شائق أخاذ مؤثر في صيغة بيانية بهية . ومن قائل أن الأدب هو فن جميل يتكون من لفظ مختار ليس وعراً ولا وحشياً ولا مبتذلاً ولا سوقياً ، ومن جمل جيدة في نظمها وعبارات متينة في سبكها تحمل معاني جيدة واضحة قوية ، ويراعي في الأساليب والصور والمعاني والأفكار ملاءمتها لأحوال السامعين ونفسياتهم وعقلياتهم ، وفي الموضوع الغرض الذي يعالجه الأديب شعراً أو خطبة أو مقالة .

ويعرف الأديب سيد قطب العمل الأدبي في كتابه النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه ، بقوله : ما العمل الأدبي ؟ وانه التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية ثم يعقب بقوله أو مع أن التعريفات وبخاصة في الأدب لا تفي بالدلالة على جميع خصائص المعرف ، ولا تصل الى أن يكون ما يسمى بالتعريف الجامع المانع . فإننا نرجو أن يكون هذا التعريف للعمل الأدبي أوفى ما يكون بالدلالة على جميع خصائصه المشتركة في فنون الأدب جميعاً . فكلمة (تعبير) تصور لنا طبيعة العمل ونوعه و(تجربة شعورية) تبين لنا مادته وموضوعه و(صوره موحية) تحدد لنا شرطه وغايته . فالتجربة الشعورية هي العنصر الذي يدفع الى التعبير ولكنها في ذاتها ليست هي العمل الأدبي ، لأنها ما دامت مضمرة في النفس لم تظهر في صورة لفظية معينة ، في احساس أو انفعال ، لا يتحقق به وجود العمل الأدبي والتعبير في اللغة يشمل كل صورة لفظية ذات دلالة ، ولكنه لا يصبح عملاً أدبياً إلا حين يتناول تجربة شعورية معينة ، ومنهم من يميل الى أن كل تعبير جميل ولو عن حقائق العلوم البحتة داخل في الأدب[1] والتحليل الأدبي المعاصر

هو قراءة نقدية تحليلية تعتمد على جملة من العناصر منها الآثار والعاطفة والأسلوب والأحكام والقيم ، أي أن التحليل يجمع الشكل والمضمون فالأفكار مثلاً يتناولها المحلل من حيث عمقها وسطحيتها ، تسلسلها وترابطها ، إيفاؤها بالغرض المطلوب أما العاطفة فيتناولها المحلل الأدبي من حيث صدقها وعدم صدقها وكذا الدوافع إليها ، أما الأسلوب وهو عنصر هام في العملية التحليلية فيتناول من حيث فصاحة لفظه وإحكام عباراته ونوع أسلوبه وكذا ألوانه البيانية وموسيقاه الخارجية ، أما الأحكام والقيم المستنبطة من سطور النص الأدبي فيتناولها من حيث الغرض العام من النص ، إذ كل نص في المعقول يقال لغرض ما ، إما أن يكون إصلاحياً أو تعليمياً أو أساسياً إلخ ... والأغراض أكثر من أن تحصى في هذا العام .

ومهما يكن من أمر هذا التحليل – وفق هذه العناصر – فهو تحليل يحتاج الى تدقيق علمي في كل عنصر من عناصره المذكورة آنفاً .

لقد غاب التحليل الأدبي المعاصر على النص الأدبي السابق حين كان يعني بالشكل واللفظ دون المعنى ، مما جعله يبني بنيانه التحليلي على المعنى اهتماماً دون اللفظ ، علماً أن الألفاظ هي أوعية للمعاني ، والمعاني خادمة لها ، والجمال في الحقيقة هو نسق بديع في المحسوسات والمعنويات (المجردات) فالذي يجعلك تحكم على التفاحة بالجمال هو نسقها البديع ، وعلى الوردة بالجمال الفاتن هو نسقها وصنعها البديع ، والذي يجعلك تحكم على النص الأدبي بالجمال هو نسق تركيبه البديع روحاً وجسداً لفظاً ومعنى ، قال الله تعالى في بيان جمال الكون وسمائه : ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير﴾[2] . فالجمال الكوني حاصل من روعة النسق وبديع الصنع وانعدام العيوب في خلق الله .

فاذا كان هذا في المحسوس حاصل ، فهو في المعنوي أحصل ودائرته تنحصر في النسق البديع بين اللفظ والمعنى .

فلا يكون النص الأدبي جميلاً ورائعاً إلا في إطار التوافق التام والنسق الكامل بين اللفظ والمعنى ، ولا أدل على ذلك من النص القرآني فهو أعلى نص أدبي ولغوي وأبينه وأفصحه وأجمله بلا خلاف ولا ريب .

ولسائل أن يسأل : متى ضاعت المعاني ومتى تبعثرت الألفاظ ؟ والجواب : لما حصل

عتناء بالألفاظ دون المعاني ضاعت هذه الأخيرة ، وحصر آنذاك الجمال في دائرة ضيقة جامدة لا روح فيها .

ولما حصل الاعتناء بالمعاني أكثر ، ضاع الكثير من الألفاظ ، وأصاب اللغة شيء من التميع أفقدها دقتها وجمالها الأدبي المعهودة بها وهذه قضية هامة تتصل عندنا بموضوع اللفظ والمعنى وحدود العلاقة بينهما ، فالألفاظ بحق هي أوعية للمعاني ، والمعاني هي خدم لها ، وأدنى خلل أو تفاوت بينهما يفسد النظم ويتلف الغرض ويحرف اللغة الإنحراف الذي يجهز عليها مع الأيام .

ومع الزمن وعلى خط عدم التوافق بين اللفظ والمعنى المكرس على يد طائفة الشكل واللفظ مرة وطائفة المعنى أخرى كتابة وتأليفاً كرس التميز الأدائي داخل إطار اللغة الواحدة ، فصار لكل طائفة لغة مميزة ... ثم أعطى هذا التميز مع الزمن تميزاً آخر واسع النطاق مس الكثير من الفنون فحصل لفن الأدب لغته وللصحافة لغتها وللسياسة لغتها ، وللمعرفة والعلم الدقيقين لغتهما الخاصة المتميزة ، علماً أن اللغة هي وسيلة – وليست وسائل – للتعبير عن الأغراض وتوضيحاً لما سبق نقول : إننا لا ننكر أن يكون لكل فن من الفنون مصطلحات خاصة به يتعامل بها المختصون ، فللأدب مفردات وألفاظ خاصة به والاعلام جملة من المصطلحات خاصة به أيضاً وللفلسفة أيضاً ، وكذلك التاريخ والجغرافيا والعلوم التجريبية الأخرى – ولا ننكر أيضاً – أن هناك مصطلحات هي قاسم مشترك بين هذه العلوم والفنون في اللغة الواحدة . ولكن الذي يجب أن يعلم هو أن معاني النحو (في علم التراكيب) أو العلاقة بين (المسند والمسند إليه) هي أمر ثابت في كل علم وفن وغرض ، يجب أن يحذو حذوها المتكلم والمؤلف أي كان تخصصه وفنه ، والخروج عنها ، هو خروج عن العقل والعلم والمنطق ، وهو ايذان بفساد اللغة وزوالها مع الزمن ، وما هو واقع اليوم على لسان الاعلام المسموع والمقروء شاهد على ما نقول ، وما تأليف المعاجم الخاصة بالأغلاط الشائعة ، وما المقالات والكتابات المتناثرة هنا وهناك في موضوع الخطأ والصواب إلا دليلاً آخر على ما ذكرناه آنفاً . ونذكر في المناسبة قضية لغوية حدثت في بلاد الغرب – وأخص بالذكر فرنسا – ولازال الجدل قائماً حولها الى اليوم وهو ثورة اللغويين على الصحافيين بحجة أنهم أفسدوا عليهم اللغة في شكلها ومضمونها ، فوظفوا مصطلحات غربية على اللغة الأم ودخيلة عنها ، كذا استخدموا أفعالاً وأسماء في غير مواضعها ، كذا التعبير عن بعض المعاني بغير أدواتها وألفاظها المعروفة والمعهودة ، فعمدوا الى ايقاف جهاز الاعلام على التمادي في هذا الغي والانحراف اللغوي الخطير ، والخطر هذا يمثل عندهم بداية خروج اللغة عن

عمليتها ، وهو بداية انحراف قد يؤدي بحياتها ويقودها الى الفناء والانقراض والشذوذ – ومن هنا فمبدأ توافق اللفظ والمعنى مبدأ ثابت يجب أن يلتزم به الجميع أي كان فنه وغرضه ما دام يعبر عنه باللغة الواحدة ، وهنا أرى ألا مجال للتمايز الأدائي حول المعنى الواحد ، إذ أن ذلك لا يخدم اللغة ، وأحسب أن الجمال الأدبي هو وليد جمال لغوي ، والجمال اللغوي قائم على أساس توافق اللفظ والمعنى في دائرتي الافراد والتركيب .

وحسبي هنا الحديث عن دائرة التركيب وأرجئ الأفراد الى بحث آخر وبعبارة أوضح أتناول قضية العلاقة بين النحو والبلاغة (الاسناد والافادة) ودورها الأساسي في تحليل النص الأدبي والكشف عن مراميه وأبعاده وأسراره ، اني أتناول الموضوع هذا لما رأيت التحليل الأدبي الفني تحليلاً تقليدياً يعتني بشكل ويغيب جوهراً ، فابتعد ذلك عن الجمالية وروعتها ، وعن العلمية ودقتها مما جعل التحليل البلاغي للنص الأدبي يتناول مفصولاً عن معاني النحو ، فراح المحللون يقيمون النص الأدبي جودة ورداءة على أساس غزارة الألوان البلاغية فيه ، من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز وجناس وطباق ومقابلة إلخ ... فاذا كثرت جاد النص ، وان قلت فهو رديء ، وهذه مسألة هي بذاتها تحتاج الى تقييم وتقويم .

م.1 : الدلالة النحوية في النص الأدبي :

النص الأدبي هو كيان له بنيانه ، وللبنيان هذا مكونات أي أبنية داخلية وبين المكونات علاقات تأثير والوظائف النحوية من فاعلية ومفعولية وحالية وخبرية إلخ ... هي في ذاتها تتفاعل وتؤثر في تركيب الدلالة المتكاملة للنص الأدبي ، وفي هذا الصدد يفصل الدكتوران فائز الداية ومحمد رضوان الداية في مقدمة دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني بقولهما : لعل النقطة الأولى التي نراها في مفهوم النظم هي الدلالة النحوية في النص الأدبي : فهو كان له بنيانه ولابد من إيجاد الروابط وعلاقات التأثير فيها بين مكوناته أي أبنيته الداخلية ، فالوظائف النحوية : الفاعلية والمفعولية والحالية والخبرية والتمييز إلخ ... تتفاعل وتؤثر في تركيب الدلالة المتكاملة ، ذلك أن الكلمة تحمل مجموعة من الدلالات لا تبين إلا بالتحليل لأننا نتلقاها مركبة .

فثمة الدلالة المعجمية السكونية هي أصل المادة اللغوية (ص،و،ر) ثم تتشكل في صيغ صرفية فتأخذ بعدا خاصا مع كل وزن من الأوزان مع اشتراك في معنى أساسي عريض (صور) يصور ،

متصور .. إلخ ... وبعد ذلك نلحظ قيمة الوظيفة النحوية التي تضاف الى الكلمة عندما تحل في ركن من أركان الجملة أو العبارة وهنا تظهر الحاجة الى تجاوز دلالة الكلمة المفردة أي بعد ادراك البعدين الأولين المعجمي والصرفي ، نجيل النظر في النص وجمله وعباراته التي يمكن لها أن تطول فتتسع هذه الكلمة على نحو خاص بحسب المتغيرات والتوافقات مع الكلمات الأخرى . هذا تحليل يبغي الاطلاع على علاقات النص التركيبية في مرحلة من مراحل العمل الأدبي ، وهو جزء من مفهوم نظرية السباق الحديثة في دراسات اللغويين والنقاد والأسلوبيين ، ويعبر الامام عبد القاهر الجرجاني عن هذا بشكل مختصر في مفتتح الدلائل ، ويفصله في فصول الكتاب فيقول وجعل بعضها بسبب من بعض . والكلم ثلاث : إسم وفعل وحرف ، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام تعلق إسم بإسم ، وتعلق إسم بفعل وتعلق حرف بهما ، فالإسم يتعلق بالإسم بأن يكون خبرا عنه أو حالا منه أو تابعاً له صفة أو تأكيداً أو عطف بيان أو بدلاً أو عطفاً بحرف (أو بأن يكون الأول مضافاً الى الثاني) أو بأن يكون الأول يعمل في الثاني عمل الفعل ، ويكون الثاني في حكم الفاعل له أو المفعول وذلك في إسم الفاعل كقولنا : زيد ضارب أبوه عمرا ، وكقوله تعالى : ﴿أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾[3][4] ، ثم يواصل الإمام عبد القاهر الجرجاني شارحاً ومفصلاً بالأمثلة والشواهد بقية الأقسام وهي تعلق الإسم بالفعل وتعلق الحرف بهما ... ثم يستأنف الحديث في موضع آخر قائلاً واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل شيء منها ، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها[5] ، ويقول في فعل آخر مطول : (ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم افرادا ومجردة من معاني النحو ، فلا يقوم في وهم ولا يصح في عقل أن يتفكر متفكر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في إسم ولا أن يتفكر في معنى اسم من غير أن يريد اعمال فعل فيه وجعله فاعلا له أو مفعولاً ، أو يريد منه حكماً سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد جعله مبدأ أو خبرا أو صفة أو حالا أو ما شاكل ذلك . وان أردت أن ترى ذلك عيانا فاعمد الى أي كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها فقل في (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) .

(من نبك قفا حبيب ذكرى منزل) ثم أنظر هل يتعلق منـك فكر بمعنى كلمـة منهـا ؟ وأعلم أني لست أقول إن الفكر لا يتعلـق بمعـاني الكلم المفردة أصـلا ، ولكني أقـول انـه لا يتعلـق بهـا مجردة من معاني النحو ومنطوقاً بها على وجه لا يـأتي معـه تقـدير معـاني النحو وتوخيهـا فيهـا كالذي أريتك ، وإلا فـإنـك اذا فكرت في الفعلين يتـأتى الاسمين تريـد أن تخبر بـأحـدهمـا عن الشيء أيها أولى أن تخبر بـه عنـه وأشبـه بغرضـك مثل أن تنظر أيها (أمـدح وأذم ، وفكرت في شيئين تريد أن تشبه الشيء بأحدهما) أيها أشبه به كنت قـد فكرت في معـاني أنفس الكلم ، إلا أن فكرك ذلك لم يكن إلا من يعد أن توخيت فيها من معاني النحو وهو أن أردت جعل الإسم الذي فكرت فيه خبراً عن شيء أردت فيه مدحاً أو ذماً أو تشبيهـاً أو غير ذلـك من الأغراض ، ولم تجيء الى فعل إسم ففكرت فيه فرداً ومن غير ان كان لك ذلك قصـد أن تجعلـه خبراً أو غير خبر ، فاعرف ذلك[6] ثم يقول : وان أردت مثالاً فخذ بيت بشار بن برد[7] .

كأن مثـــار النقــع فــوق رؤوسنـــا   وأسيـــافنـــا ليـل تهـــاوى كـواكبـــه

وأنظر هل يتصور أن يكون بشار قد أخطر معاني هذه الكلم بباله أفراداً عاريـة من معـاني النحو التي تراهـا فيهـا ، وأن يكون قـد وقع (كأن) ، في نفسـه من غير أن يكـون قصـد إيقـاع التشبيـه منـه على شيء ، وأن يكـون فكر في (مثـار النقـع) من غير أن أراد إضـافـة الأول الى الثاني ، وفكر في (فوق رؤوسنا) من غير أن يكون قـد أراد أن يضيف (فوق) الى الرؤوس ، وفي الأسياف من دون أن يكون أراد عطفهـا بـالواو على (مثـار) وفي (الواو) من دون أن يكون أراد العطف بها ، وأن يكون كذلـك فكر في (الليل) من دون أن يكون أراد أن يجعلـه خيراً لكأن ، وفي (تهاوى كوكبه) من دون أن يكون أراد أن يجعل تهاوي فعلاً للكواكب ثم يجعل الجملـة لليل ليتم الذي أراد من التشبيه ؟ أم لم تخطر هذه الأشياء بباله إلا مرادا فيها هـذه الأحكام والمعـاني التي تراها فيها ؟ وليت شعري كيف يصور وقوع قصد منك الى معنى كلمـة من دون أن تريـد تعليقها بمعنى كلمة أخرى ... ومعنى القصد الى معاني الكلم أن تعلم السامع بهـا شيئـاً لا يعلمـه ؟ ومعلوم أنك أيها المتكلم لست تقصد أن تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها فلا تقول : اخرج زيد : لتعلمه معنى خرج في اللغة ومعنى زيد ، كيف ومحال أن تكلمه بـألفـاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف ؟ ولهذا لم يكن الفعل وحده من دون الأسم ولا الاسم وحـده من دون إسم آخر أو فعل كـلامـاً ، وكنت لـو قلت (خرج) ولم تـأت بـاسم ولا قـدرت فيـه ضمير الشيء ، أو قلت زيد ولم تأت بفعل ولا إسم آخر ولم تضمره في نفسك كان ذلك وصوتاً تصوته سواء[8] .

م.2 : النحو والبلاغة في تحليل النص الأدبي :

إن الوظيفة الأساسية للغة هي الابلاغ ، ولا يحصل بلاغ إلا عن طريق ربط النحو بالبلاغة . ومبدأ العلاقة بين النحو والبلاغة مبدأ أصيل في اللسان العربي المبين ، وعريق في الدراسات اللغوية والأدبية القديمة يلخص الدكتور جعفر دك الباب هذا المبدأ . تأكيد الوظيفة الابلاغية عن طريق ربط النحو بالبلاغة . بقوله : (... أدت تلك الظروف الموضوعية الى بروز حاجة ماسة للخروج عن هذا الوضع الذي آلت إليه الدراسة النحوية المتخصصة ...) فعمد الامام السيرافي وهو معتزلي - الى شرح الكتاب مؤكداً على جانب الوظيفة الابلاغية للغة ، وظهر مع أبي على الفارسي - وهو معتزلي - اتجاه جديد أخذ يستعرض الآراء في كل مسألة ، ويأخذ ما يراه صواباً منه ، دون التقيد المسبق بآراء مدرسة معينة وتابع تلميذه وهو معتزلي هذا الخط وعمقه ، وشعر ابن جني بأنه من أجل الخروج من هذا الوضع الذي وصلت إليه الدراسة النحوية المتخصصة ، يجب إكتشاف النظام العام للغة ، وراح في سبيل ذلك يبحث في كتابه الخصائص عن الأصول العامة للنحو ، وأما الامام عبد القاهر الجرجاني - وهو متكلم على مذهب الأشعري - فقد تابع السير في طريق اكتشاف النظام العام للغة ، وتصدى بجزم للتيار الذي اهتم باللفظ دون المعنى وأكد الوظيفة الابلاغية التي تؤديها اللغة ودعا الى عدم فصل البلاغة عن النحو فكان كتابه - دلائل الإعجاز - بداية مرحلة جديدة في تاريخ علوم اللغة العربية هي مرحلة تأكيد الوظيفة الابلاغية للغة عن طريق ربط النحو بالبلاغة[9] .

والناظر المتمعن في كتاب الدلائل - للامام عبد القاهر الجرجاني يجده في بداية مؤلفه يهاجم الدعوة الى إهمال الشعر والانصراف عن النحو : فيقول عن الطائفة التي تدعو الى ذلك : أنها لا تعلم الدقائق والأسرار ، لأن طريق العلم بها الروية والفكر ولطائف مستقاها العقل ، ولذلك لم تطلبها قصار لذلك بينها وبين العلم حاجزاً فساء اعتقادها في الشعر ، وفي علم الاعراب الذي هو لها كالناسب الذي ينميها الى أصولها وبين فاضلها من مفضولنا ، وأما الشعر فيخيل إليها أن ليس فيه كثير «طائل» وأنه ليس شيء تمس الحاجة إليه في صلاح دين أو دنيا .

أما النحو فظنته ضرباً من التكلف وباباً من التعسف وشيئاً لا يستنر الى أصل ولا يعتمد فيه على عقل ، وإن ما زاد منه على معرفة الرفع والنصب ، وما يتصل بذلك مما نجده في المبادئ فهو فضل لا يجدي نفعاً ، ولا تحصل منه فائدة[10] .

لهذا فقد تصدى لهذا التيار الذي اهتم باللفظ دون المعنى ، واهمل الشعر وانصرف عن النحو

لأن ذلك يؤدي الى النقد عن ان تعرف حجة الله في اعجاز القرآن[11] . وعند حديثه عن مفردات اللغة من حيث سبب وضعها وحكمتها فيرى أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرفها معانيها في أنفسها ، ولكن لأن يضم بعضها الى بعض فيعرف فيما فوائد[12] ، فالفائدة التامة التي يحسن السكوت عندها لا تحصل الى من الكلام التام ، ومختصر الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد ، لأنه لابد من مسند ومسند إليه .

وهذا يعني أن اللغة نظام لربط الكلمات بعضها ببعض وفقاً لمقتضيات دلالتها العقلية لكي تتمكن من القيام بوظيفتها الأساسية كوسيلة للاتصال بين الناس . يقول الإمام الجرجاني (ومما يعلم ببدائية العقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع عرض المتكلم ومقصوده)[13] وتعرف المقاصد والأغراض بواسطة نظم الكلم وهو نظم مميز ومختلف عن نظم الحروف في اللفظية الواحدة ، ويتوجب على اللغوي احكام الفرق بين النظمين (ونظم الحروف هو تواليها في النطق فقط ، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ترتيبها في النفس ... وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء الى الشيء كيف ما جاء واتفق ... بل ان تتناسق دلالتها وتتلاقى معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل[14] .

وبعد هذه الموازنة بين النظمين يحدد الامام الجرجاني العلاقة بين الألفاظ والمعاني فيرى أن الألفاظ خدم للمعاني وأوعية لها ويقول (وليت شعري هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني ؟ وهل هي خدم لها ومصرف عن حكمها ... فكيف يتصور أن تسبق المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس[15] وبهذا يرتبط مفهوم النظم بالنحو ارتباطاً وثيقاً لأنه يتبع الوضع الذي يقتضيه علم النحو ويخضع لقوانينه وأصوله[16] . وفي هذا يقول الجرجاني : وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل شيء منها .. هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطأه إن كان خطأ وتدخل تحت هذا الإسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه عوامل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له[17] .

ويؤكد الامام الجرجاني على معاني النحو أولاً وأخيراً بقوله (فقد لا تدرك الفرق من المعنى بين قولنا (أنا ما سمعت) و(ما سمعت أنا) لكن علم المعاني هو الذي يعلمنا هذه الفروق ويوقفنا على المعاني المتباينة بين كل من هذه التراكيب لذلك قالوا : انه علم معاني النحو) . ويقول في

موضع آخر شارحاً المراد من علم المعاني (إنه إئتلاف الألفاظ ووضعها في الجملة الموضع الذي يفرضه معناها النحوي إذا فعلم المعاني هو روح النحو وعلته وبيان أغراضه وأحواله إضافة الى هذا فهو يعلمنا متى تجعل الجملة خبرية ومتى تجعل إنشائية وبين لنا السبب في هذه وتلك .. ويعلمنا متى يجب القصر والوصل . والفصل ومتى لا يجب يقول الأستاذ تمام حسان مبينا العلاقة بين العلمين (إذا كانت الشركة في دراسة الجملة قائمة بين علم النحو وعلم المعاني ، فان النحو يبدأ بالمفردات وينتهي الى الجملة الواحدة على حين يبدأ علم المعاني بالجملة الواحدة وقد يتخطاها الى علاقتها بالجملة الأخرى في السياق الذي هي فيه)[18] ويقول في موضع آخر (فاذا وضعنا ما تقدم من العلاقة بين العلمين في الاعتبار فلربما تلقينا بالقبول دعوى أن النحو ينظم الأبواب في الجملة ، وأن علم المعاني ينظم الجملة في أسلوب كلام متصل ودعوى أن النحو تحليلي وعلم المعاني تركيبي)[19] ويعرض الامام مبينا أن صحة النظم وفساده قائمين على معاني النحو ، بقوله ولا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف فصل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد ، وتلك المزية وذلك الفضل الى النحو وأحكامه ... يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه)[20] .

وفي بيان أن معاني النحو هي المزية الحقيقية في النظم يقول أيضاً : (واعلم أن السبب في ان لم يقع النظر منهم موقعه أنهم حين قالوا نطلب بالمزية ظنوا أن موضعها اللفظ بناء على أن النظم نظم الألفاظ وأنه يلحقها دون المعاني ، وحين ظنوا أن موضعها ذلك اعتقدوه وقفوا على اللفظ وجعلوا لا يرمون بأوهامهم الى شيء سواه ، إلا أنهم على ذلك لم يستطيعوا أن ينطقوا في تصحيح هذا الذي ظنوه بحرف بل لم يتكلموا بشيء إلا كان ذلك نقصاً وإبطالاً لأن يكون اللفظ من حيث هو لفظ موضعاً للمزية وإلا رأيتهم قد اعترفوا من حيث لم يدروا بأن ليس للمزية التي طلبوها موضع ومكان تكون فيه إلا معاني النحو وأحكامه ، وذلك أنهم قالوا : إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة ، فقولهم بالضم لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة – من غير اتصال يكون بين معنييها ، لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ الى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي اذا قيل (ضحك خرج) أن يحدث من ضم (خرج) الى (ضحك) فصاحة ، واذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضم الكلمة الى الكلمة توخي معنى من معاني النحو فيما بينهما ، وقولهم على طريقة مخصوصة يوجب ذلك أيضاً ، وذلك أنه لا يكون للطريقة – اذا أنت أردت مجرد اللفظ – معنى وهذا سبيل كل

ما قالوه اذا أنت تأملته ، تراهم في الجميع قد دفعوا الى جعل المزية في معاني النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا ذلك لأنه أمر ضروري لا يمكن الخروج منه[21] .

يقول الأستاذ تمام حسان في الأصول (وهكذا نجد الامام الجرجاني يكاد يسمى هذا العلم (معاني النحو) ويرجع مفاهمه الى أصول النحو والى أبوابه وثوابته وتجريداته)[22] .

وقد أورد الإمام الجرجاني أمثلة كثيرة في مؤلفه يشرح فيها مفهوم النظم ويبين ارتباطه بالنحو . وفي هذا المقام يوضح قائلاً : (اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ، وذلك أنا لا تعلم شيئاً يبتغيه النظام ينظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه وينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك (زيد منطلق) و(زيد ينطلق) و(منطلق زيد) و(زيد المنطلق و(المنطلق زيد و(زيد هو المنطلق) و(زيد هو منطلق) ... وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها في قولك (أن تخرج أخرج) و(إن خرجت خرجت) و(إن تخرج فأنا خارج) و(أنا خارج إن خرجت) و(أنا خرجت خارج) ، وفي الحال الى الوجوه التي تراها في قولك : (جاءني زيد مسرعا ، وجاءني يسرع وجاءني وهو مسرع أو هو يسرع وجاءني قد أسرع وجاءني وقد أسرع فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجئ به حيث ينبغي له وينظر في الحروف التي تشترك معنى ثم يتفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو ان يجيء بـ (ما) في نفي الحال ،وبـ (ك)إذا أراد نفي الاستقبال ، بـ (إن) فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون ، وبـ (اذا) فيما علم أنه كائن ، وينظر في الجمل التي تسرف فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع (الواو) من موضع (الفاء) ، وموضع (الفاء) من موضع (ثم) وموضع (أو) من موضع (أم) وموضع (لكن) من موضع (بل) ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله ، وفي الحذف والتكرار والاضمار والاظهار فيصيب بكل من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له[22] .

ويوضح فكرة النظم في موطن آخر فيقول : (... أن تعمد الى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعول أو تعمد الى اسمين فتجعل احدهما خبرا عن الآخر أو تتبع الاسم إسما على أن يكون الثاني صفة للإول ، أو تأكيداً له ، أو بدلاً منه أو تجئ باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تمييزا ، أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفياً أو استفهاماً أو